بسم الله الرحمن الرحيم

أولا ـ الدراسة :

هذه فصول من رسالة لم تنشر بعد ، صنفها الجاحظ ، وما زالت مخطوطة ومحفوظة في المتحف البريطاني (١) ضمن مجموعة من فصول مختارة من رسائله ، وتحتفظ مكتبة جامعة القاهرة بمصورة لهذه المخطوطة (٢) وتشغل الصفحات من ١٧٥ الى ١٨٦ من هذه المصورة ـ ولم نعثر على نسخ أخرى من هذه الرسالة لتوفر المقابلة بين النصوص المتشابهة فهي نسخة وحيدة نادرة .

ولا يشير اليها الجاحظ في ثبت كتبه ورسائله الذي صدر به كتاب "الحيوان" ، فالمثل لا يذكر شيئا عنها في أمهات تصانيفه من مثل البيان والتبيين والبخلاء والعثمانية ورسائله المنشورة ، ولعل ذلك يعود الى سببين :ـ

الأول : أنه لا يشير في كتبه ورسائله الى كل ما ألف وصنف .

والثاني : أنه ربما يكون صنفها في وقت لاحق لتصنيفه هذه الكتب والرسائل

فالمثل لم يشر ياقوت في ترجمته للجاحظ الى هذه الرسالة ، انما يشير الى مصنف يحمل اسم كتاب "الكبر المستحسن والمستقبح" (٣) وفي الفهرست لابن النديم اشارة الى عين المصنف (٤) .

وما يشير اليه ابن النديم وياقوت من كتاب "الكبر المستحسن والمستقبح" هو كل ما نعرف عن هذا المصنف ، اذ لم نعثر عليه أو على فصول منه أو على اشارات أو احالات تدلنا على موضوعه وتصوره تصويرا يقربه الى ذهن الدارس . ولا نستطيع التكهن بما في هذا المصنف من عنوانه خاصة أن عنوانات كتابات الجاحظ لا تشير مباشرة بموضوعاتها ، فكتاب "الحيوان" (٥) مثلا يضم مسائل كلامية وأدبية تستأهل أن تكون أصولا بذاتها تضمنها

---

(١) المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ رقم ١٨ .

(٢) مكتبة جامعة القاهرة مخطوط رقم ٢٤٠٦٩ .

(٣) معجم الأدباء (ط . دار المأمون) ١٠٩/١٦

(٤) أنظر أوبري ص ٤٢

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تأليف خاصة بها لا أن تكون فروعا من البحث الأساسي وهو مسائل الحيوان ومن ثم فان النظر الى هذا المؤلف من خلال عنوانه فقط يخدع الدارس الذي لا يعرف حقيقة منهج الجاحظ في التأليف وعلى هذا لا نستطيع الخوض في الحديث عن موضوع كتاب "الكبر المستحسن والمستقبح" وبيان علاقته بالرسالة التي نحن بصددها وهي "النهل والتنهل وذم الكبر" لأن ذلك سيكون رجما بالغيب .

وعلى الرغم من هذا فان ما تناولته الفصول الباقية من هذه الرسالة توحي بأن الكاتب صنف جملة من التصانيف في موضوعات تمس الخلق العام يصح أن يكون مصنفه في "الكبر المستحسن والمستقبح" واحدا منها مع تلك المجموعة التي وضعها بروكلمان تحت عنوان تأليف الجاحظ في "علم الأخلاق العام"(٦) من هذه التصانيف رسائله ومن بينها "الحاسد والحسود"(٧) و"تفضيل النطق على الصمت"(٨) و"في البرصة والخلطاء"(٩) و"في مدح النبيذ وصفة أصحابه"(١٠) في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة"(١١) و"المعاد والمعاش"(١٢) وغيرها .

ومن الحق أن دراسة هذه التصانيف وغيرها مما تناولت الخلق العام للمجتمع والعلاقات الخلقية بين أفراده تعطي صورة دقيقة الى حد ما للسمات الخلقية للمجتمع العباسي في عصر الجاحظ ، وان هذه الدقة لتقل صورة القيم الخلقية في مجتمع الحواضر العباسية التي تركزت فيها سلطات الحكم والخلافة في هذا العصر ومدى التفاوت بين الحدين المثالي والأدنى لهذه القيم ، أو بين ما يطمح الكاتب الى تحقيقه وبين ما يحذر من التردي فيه .

وفي هذه الفصول من رسالة "النهل والتنهل وذم الكبر" يحاول الكاتب حث القارئ على التمسك بالنهل ، ويرسم الطريق الى التخلي بهذا الخلق ، وهذه أن المرء النهل "يكون نهل الرأي نهل اللفظ نهل العقل ، نهل الخلق نهل النظر" فهو نهل في ظاهره وفي باطنه وفي سلوكه وفي مقعده ، وهو لا يحتاج الى

---

(٦) تاريخ الأدب العربي ٣/١١٨ .
(٧) هامش الكامل للمبرد (ط . ١٣٢٣ هـ) ١/ ١٦
(٨) السابق ٢/٢٢٢ - ٢٣٧ .
(٩) رسائل الجاحظ تحقيق هارون الرسالة السابعة .
(١٠) رسائل الجاحظ نشر السندوبي ٢٨٥ - ٢٩١ .
(١١) المصدر السابق (من رسائله الخاصة) .
(١٢) رسائل الجاحظ تحقيق هارون الرسالة الثانية .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ما يعلن للناس نبله ، اذ أن " النبيل لا يتنبل كما أن الفصيح لا يتفصح " لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل ، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح " وعلى هذا النحو يمضي في شرح نظريته الخلقية في مدح النبل والتنبل وتأصيل هذا الخلق في نفس القارئ .

وهو بالمثل يمضي في طرح وجهة نظره في الكبر ، ويرد على القائل بأن الكبر مستحسن لأن الله تعالى قد أتوصف به نفسه في القرآن الكريم حين قال " الجبار المتكبر " ثم قال " وله الأسماء الحسنى " ، هنا يقول الكاتب : " ان الانسان المخلوق المسكين ، والضعيف البسيط ، لا يليق به الا التذلل ، ولا يجمله له الا التواضع ، وكيف يليق الكبر بمن ان جاع صرخ ، وان شبع طغى " .

وان كان ثمة وجه شبه بين غاية هذه الرسالة وجملة الرسائل الأخرى التي تناولت هذه النزعات الخلقية والتربوية ، فاننا مع هذا لا نستطيع تحديد زمن بعينه نظن أنه صنعها خلاله ، حقا هناك بعض الرسائل ذات الطابع الخلقي ولنا الكاتب بنفسه على زمن تأليفها من ذلك رسالته " في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة " صنفها ابان صلته بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، ورسالته " في المودة والخلطة " صنفها ابان صلته بأبي الفرج بن نجاح الكاتب ، ومع ذلك فان موضوع الخلق العام مستمد من الموضوعات التي شغل بها الجاحظ منذ باكورة عهده بالتأليف ، ولا نستطيع القول بأنها تشغل فترة من حياته دون الأخرى فيها كتاباته في " الامامة " وهي من أوائل تصانيفه(١٣) ، اذ هداها للمأمون فلا صورة لما يجب أن يكون عليه المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ : د . محمد عويس ص ٤٤ ، امام العباسيين وخليفتهم مستمد من خلق رفيع ، فالدارس لكتاباته يحس بهذه النزعة عنده ، وأنها أخذت شكل غاية يحرص على تحقيقها وكأنها في بعض الأحيان كانت من دوافع التأليف عنده .

ونظن أن بعض الدوافع النفسية كانت من وراء تصنيف لبعض هذه الكتابات مضيفين ذلك ما نحسه دافعا لتأليف رسالته في " ذم أخلاق الكتاب " ورسالته " فضل ما بين العداوة والحسد " فقد حمل فيهما حملة شعواء على كتاب الدواوين سببها بعض الدوافع الشخصية(١٤) في نفسه ، ذلك أنه كان فيما يظهر سيء العلاقة مع فئة منهم ، اسمعها له الحقد والحسد وتوعده وبالغ المستطير لقاء ما يسطر من كتاباته ،

---

(١٣) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ : د . محمد عويس ص ٤٤ .

(١٤) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ : د . محمد عويس ص ٤٨ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com